

## ٨ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمته محمد ميسى

## الفصل الأول

وقد استمر إرباط بتوغل في اليمن بعد موت ذى نواس الحميري « قتل ثلث رجالها وخرب ثلث بلادها ، وبث إلى التجاشي بثلث سباياها ، ثم أقام بها فضبطلها وأذلها <sup>(١)</sup> ، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبش ، وكان في جنده حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فأحماز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ؛ ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى إرباط « إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة ببعضها يعض حتى تفتنبا شيئاً ، فأبرزلى وأبرز لك ، فأبنا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده » قبل أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً لهما حادراً وكان ذا دين في النصرانية ؛ وخرج إليه إرباط وكان رجلاً عظيماً طويلاً وسيماً ، فرفع إرباط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخه ، فوقمت على جبهة أبرهة فشرمت حاجبيه وعينه وأفقه وشفته ، فسمى أبرهة الأشرم ، وحمل غلام أبرهة

(١) وفي ذلك قال بعضهم ذاكراً ما ساق إليهم دون ذو مطبان من أمير الحبشة : « لا كدوس ولا أطلاق رحله ، ( المترجم )

الكتاب إنما كان موجهاً إلى العلماء الغربيين لا للأندية المثقفة من أبناء الشرق أيضاً

وإني أوجه أنظار الأساتذة العاملين على إخراج بقية أجزاء الكتاب ألا يتورطوا فيما تورط الأستاذ جويتان من مسألة المقدمة والذيل التي أغفل فيها العربية إغفالاً يكاد يكون تاماً والذي تمنناه من صميم الفؤاد أن يبادر بقية العلماء القاعين بمراجعة الكتاب بإخراج الأجزاء الأخرى حتى يستفيد العالم العربي عاجلاً من كتاب أنساب الأشراف الذي يعد بحق من أمهات المصادر لكل من يبحث في عصر ظهور الاسلام وجره ونجمه اسرائيل ليفسوره (أبر ذؤيب)

مستوردة على إرباط فقتله ، فلك أبرهة ، ثم كتب إلى النجاشي : « أيها الملك إنما كان إرباط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا في أمرك ، وكل طاعته لك ، إلا أني كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس ، وقد حلفت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرض اليمن ليضمه تحت قدميه فيبر قسمه » فثبته النجاشي . ثم إن أبرهة بنى «المكيس» بصنماء لم ير مثالها في زمانها ، ثم كتب إلى النجاشي : « إني قد بنيت لك كنيسة ولست بمنته حتى أصرف إليها حاج العرب » فلا كت الألسن ذلك فقام رجل من بني فُقم : فخرج إلى المكيس فقمع فيها ، ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة خلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه » ولكن الفشل الذريع الذي منيت به هذه الحملة التي وقعت عام الفيل ( سنة ٥٧٠ م ) لم يحرر بلاد اليمن في الحال من نير الأحباش ، إذ أن ولدي أبرهة يكسوم ومسروق كانا عبثاً ثقيلاً على العرب فنجوا منه . وقام في ذلك الجين أحد أشراف حمير واسمه « سيف بن ذى يزن » مستحثاً لهم ، ولكن ضاعت دعوتهم لإمام أدراج الرياح . ولما لم ير مساعدة من قومه وجه وجهه شطر الاستعانة بغوث أجنبي ، وتردد بين قيسر الروم وكسرى فارس ، فضى أولاً إلى القسطنطينية فردة القيصر خائباً ، فطلب من والي الحيرة العربي الذي كان خاضعاً لفارس أن يقدمه إلى بلاط المدائن ؛ ولكن كيف استطاع أن يكسب عطف الملك الساساني أو ثروان اللقب بالعدل حتى أرسل معه ثمانمائة مقاتل من نزيلى السجون ممن أطلق سراحهم ؟ وكيف أبحروا معه إلى اليمن وعلى رأسهم قائد طاعن في السن ؟ وكيف أحرقوا مراكبهم واستمدوا من اليأس قوة ، وكيف هزموا الأحباش هزيمة منكرة وطردهم واستردوا اليمن وجملوها ولاية فارسية <sup>(١)</sup> . . . كل هذا يسوقنا إلى سرد قصة طويلة آثرت تحطها وإغفالها في مثل هذا المجال ، لأنها تتصل بتاريخ الفرس أكثر من اتصالها بتاريخ الأدب العربي ، تلك الأمور التي قامت - كما رجح نللكه - على أخبار لقنها الغزاة الفرس الذين

(١) يمد الفارسي بياناً وانياً وتفصيلاً شاملاً لهذه الأمور كلها في كتاب تاريخ الفرس الأدبي Lit Hist of Persia للأستاذ براون ج ١ ص ١٧٨ - ١٨١

بينما يكون الشرح المرفق بها من عمل الأدباء الذين يدأبون على تفسيرها ، ولو أنه في حالات عدة يُؤتى بعنائها ومقصودها على سبيل الحدس ، كما نسبت الظروف التي بعثهم على إرسالها ، وبالرغم من هذا فقد كنا نحسر شيئاً جسيماً لو لم تكن بين أيدينا الجامع الشهيرة للفضل بن سلمة<sup>(١)</sup> (المتوفى حوالي ٩٠٠ م) والميداني<sup>(٢)</sup> (١١٢٤ م) التي تضمنت إشارات عجيبة وأخباراً تلقى بصيصاً من النور على كل جوانب الحياة التي سبقت ظهور الاسلام

(٣) الأخبار والأفايص : لما لم يكن للعرب الوثنيين — على العموم — معرفة بفن الكتابة الخطية واستعمالها فقد كان من المستحيل أن تقوم للنثر — باعتباره فناً أدبياً — قائمة فيهم ، ومع ذلك فإن بذور النثر الأدبي يمكن إرجاعها الى عصر الجاهلية ، وعدا النثر والخطبة نجد عناصر التاريخ والقصة في القصص النثرية التي كان يقدمه الحفاظ والرواة لتوضيح موضوع أغانيهم ، وفي القصص التي تمدد مآثر القبائل وأبنائها . وإن المدد الوفير من هذه القصص ( التي يرجع بعضها الى أصل حقيق والآخر يجعل طابع الخرافة ) لتثبت في نايها المؤلفات الأدبية والتاريخية والجغرافية التي وُضعت أيام الدولة العباسية وخاصة في كتاب الأغاني<sup>(٣)</sup> لأبي الفرج الأصفهاني (٩٦٧ م) وهو مجموعة ثمينة قامت على دراسة الشخصيات<sup>(٤)</sup> الأدبية الكبيرة في القرنين الثاني والثالث للهجرة . وقد ضاعت الكتابات الأولى لهؤلاء الأدباء والنقاد دون استثناء ، ولولا اقتباسات الأغاني الكثيرة لما كان في متناول أيدينا نماذج من آثارهم . ويقول ابن خلدون عن هذا السفر : « إن أبا الفرج جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الفناء في المائة صوت التي اختارها المنفون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب

(١) لقد أصبحت مجموعة أمثال الفضل بن سلمة الكوفي الساسة « بالفاخر » في متناول اليد إذ طبعتها أنيقة مستر C. A. Stotey في لندن ١٩١٥  
(٢) طبع أمثال الميداني وترجمتها اللاتينية Freytag في ٣ مجلدات (طبعة Bonn ١٨٣٨ — ١٨٤٢ م) تحت اسم Arabum Proverbia  
(٣) طبع كتاب الأغاني في بولاق مصر (١٢٨٤ — ١٢٨٥ هـ) في عشرين مجلداً ، وقد أضاف إليها Brünnow مجلداً بأسماء الأهلان الذين ترجم لهم أبو الفرج فيه ، وهو مطبوع في لندن عام ١٨٨٨ م . وتقوم دار الكتب المصرية حديثاً بطبع الأغاني طبعة متعة مع ملاحظات نقدية  
(٤) هكذا يسميهم سير شارلز ليل

استوطنوا اليمن لأبنائهم الأشراف ، الذين يسميهم العرب الأبناء أو بني الأحرار  
وإننا لنترك الآن مملكة اليمن وقد نهاوت دعائم قوتها ودالت دولتها وسقطت من عليها مكائنها الى الأبد ، ونمود ناحية الشمال في دراسة التاريخ العربي :

## الفصل الثاني

### مأربح العرب الوثنيين وأساطيرهم

يسمى المسلمون الفترة الواقعة منذ فجر التاريخ العربي حتى ظهور الاسلام بالجاهلية ، وقد ورد هذا اللفظ في أربع فقرات في القرآن ، ويقصد به عادة « الجهل » ، وإن كان جولدزير قد أوضح أن المدلول الذاتي لكلمة « جهل » (الذي اشتقت منه الجاهلية) عند شعراء ما قبل الاسلام لا يقصد به « عدم المعرفة » أو « الوحشية » و « الممجية » ، وليس المعنى المضاد لكلمة « علم » ، ولكنه عكس معنى حلم المعبّر عن التهذيب الأدبي عند الرجل الثقف . « وحينما يقول المسلمون إن الاسلام قضى على طبائع وعادات الجاهلية فانهم يقصدون بذلك العادات المستتبحة ، وهذا الخلق الممجى الذي تفتقر به الوثنية عن الاسلام ، وبالمستحسن من الطبائع التي جدد محمد (ص) في استئصالها من نفوس قومه : كذمية الجاهلية ، والمصيبة القبلية ، والجد في طلب النار ، والحقد ، وغير هذا من طبائع الوثنية السهجنة التي قضى عليها الاسلام »<sup>(١)</sup>

وإن المصادر التي نستمد منها صورة حياة هذه الفترة لتندرج تحت أربعة أبواب كما يلي :

(١) القصائد والقطعات الشعرية التي وإن لم تكن قد دونت في ذلك الحين إلا أنها ظلت محفوظة بالرواية الشفهية ، ثم كتب معظمها بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهي في الحقيقة الأثر الوحيد الذي بين أيدينا عن تاريخ العصر السابق للإسلام ، وتوضح أهميتها من القول المأثور « إن الشعر ديوان العرب وجامع شتات المحاسن التي سلفت لهم » وسيرى القارى في الفصل التالي بعضاً من الشعر الدرزي في تلك الفترة

(٢) الأمثال وهذه أقل قيمة من الشعر ، إذ قلما تفسر نفسها

غرب الفرات ، وكاتنا في نزاع دائم واصطدام ونزال ، حتى ولو لم تكن تدفعهما من الخلف قوة الامبراطوريتين ، وسرعان ما ظهرت كغاية العرب الحربية ومهيارتهم حينما درّبوا على الأسلحة . وفي أثناء حرب فاليران مع كسرى ساپور الأول خرج شيخ عشيرة عربي في « تدمر » ويدعى أذينة وسار على رأس قوة كبيرة ضد الغزير ونأزله وفرّق شمله وطرده من سورية واقتنى آثاره حتى رده الى أبواب المدائن عاصمة فارس سنة ٢٦٥ م ولقد قدر الامبراطور جاليانوس Gallenue صنيعة الباهر فانتم عليه بلقب Augustus العظيم ، ولقد كان في الحقيقة السيد المطاع في الكتابات الرومانية في الشرق ، ولكنه قتل غيلة في العام التالي وكان في زوجته زينوبيا ( الزباء ) خير خاف ، فأخذت على عاتقها تشييد امبراطورية شرقية ضخمة ، ولم يكن نجاحها أعظم من نجاح كليوباترا في مثل هذه المحاولة ، ولكن حدث ما ليس في حسابها إذ انتصر أورليان واقتيدت « ملكة الشرق » للشكيرة أسيرة أمام عريته في شوارع رومة عام ٢٧٤ م

مس محمد مهني

( يبيع )

لجنة التأليف والترجمة والنشر

## النظريات والأوضاع الحديثة

للنظام الصناعي

تأليف ج . ر . ه . كول

ترجمة الأستاذ محمد عبد الباري

أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر هذه الرسالة

ضمن سلسلة المعارف العامة

وهي تبحث في أهم المشاكل الاقتصادية السياسية الصناعية وتعرض لحلولها المختلفة وما شرع للعمال على يد الاشتراكيين وغيرهم

وتحت ٦ قروش صاغ عدا أجرة البريد ، ويطلب من

اللجنة ومن المكاتب الشبية

وأوقاف ، ولا يمدل به كتاب في ذلك فيما نعلم وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها (١)

ولن أحاول في الصفحات التالية أن أضع في ترتيب واتصال هذه الأسماء والقصاص المضطربة التي رسخت في الأذهان واندس بين ثناياها جميع ما نعرفه عن بلاد العرب في العصر السابق للإسلام ؛ إذ أجز هذا خير إنجاز وفي دقة عجيبة كوزان دي برسيفال (٢) في كتابه : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme وليس هناك ثمت جدوى مطلقاً من أن أسوق للقارى موجزاً مقتضباً لهذا العمل القيم ، والأجدي - كما يتراءى - أن أسوق للقارى بضع ظواهر واضحة بينة تمثل هذه الفترة كما وضعا العرب أنفسهم . وإذا كانت الأحاديث العربية يعوزها الدقة التاريخية فانها في مجموعها تكشف القناع عن الروح السائدة في العصر المظلم التي تستحضره من غياهب الزمن الصحيح وتبرزه أمامنا

وفي حوالي منتصف القرن الثالث المسيحي كانت تتأخم بلاد العرب من الشمال والشمال الشرق امبراطوريتان تتنافسان في الرطامة هما دولة الروم ودولة الفرس اللتان تفصلهما صحراء الشام عن بعض ؛ ولما رأى الفرس أنهم عرضة لنزوات البدو الذين كانوا يشنون الغارات بين حين وآخر على الحدود ، ويستولون على ما يصل أيديهم من الفسائم ، ثم يحتفون بنفس السرعة التي اتهمت بها لغاراتهم ، لما رأوا ذلك وجدوا السرورة تدعوهم إلى إيجاد حامية على طول حدود هذه الصحراء ، وبهذا أمكن صد غزوات القبائل البدوية وغاراتها ، ولكن تبين أن القوة علاج غير فاجع تماماً ، فضلاً عما تكلفه الدولة ، وعملاً بالمثل القائل : « فرّق تسد Divide et impera » فقد ارتوى ادخال بعض القبائل المنيرة في خدمة الامبراطورية . وما أدى إلى عدم قيام البدو بأى اضطراب دفع شيء من المال لهم بانتظام ، واستمدادهم على الدوام للنزوا الفجائي إذ كان الروم والفرس في هذه الأيام في حروب لا يحمّد أوارها ولا ينجبو ضرامها ، ومن ثم فقد حاربوا كحالافين أحراراً تحت لواء أسرائهم أو شيوخهم . وبهذه الوسيلة ظهرت أسرقان عريبتان هما دولة القساسنة في سورية واللخميون في الحيرة

(١) مقدمة ابن خلدون ( بيروت ١٩٠٠ ) ص ٥٥٤

(٢) وقد طبع في باريس ( ١٨٤٧ - ١٨٤٨ ) في ٣ مجلدات